النص التراثي الأدبي الشعبي العربي وسؤال المنهج في الجزائر (مرتاض وبورايو أنموذجا)

The Arabic folk literary heritage text and the question of approach in Algeria (Murtadh and Bouraiou as a model)

أ.أحمـــــــد بنـــــــاني
المركز الجامعي لتامنغست
(*abenani@maktoob.com*)

مُلخَّص البحث

يتناول هذا البحث محاولة النظر الفاحص للمناهج التي تناول بها بعض النقاد الأدب الشعبي، بعيدا عن البيئة التي نشأ فيها، أهمها المنهج الحداثي، وقد اختار الباحث معالجة الموضوع من خلال منهج كلّ من الناقدين الجزائريين مرتاض وبورايو في معالجة الأدب الشعبي الجزائري.

Abstract

This research deals with an attempt to examine the methodologies addressed by some folk literature critics, away from the environment where it grew up, mainly the modernist approach. The researcher chose the treatment of this subject through the approach of both of the Algerian critics Mrtadh and Bouraiou in the treatment of the Algerian Popular Literature.

Rèsumè

Le texte littéraire populaire, patrimoine et arabe et la question de méthode en Algérie: Mourtad et Bourayou - modèle

Le présent article est une tentative qui a pour but d'examiner et de mettre en vue les méthodes abordées par certains critiques de la littérature populaire, et ce loin de l'environnement où cette littérature a eu lieu. Parmi ces méthodes, nous abordons l'approche moderniste, considérée comme la plus importante. Le chercheur a choisi d'aborder ce sujet selon la méthode des deux critiques Algériens celui de Mourtad et celle de Bourayou dans l'étude de la littérature populaire algérienne.

إنّ النص التراثي الأدبي الشعبي نص يحمل خصوصية متميزة، تجعل المتصدي إلى سبر أغواره يضع أمامه هذا التميز والتفرد، وهو تحدٍّ فرضه هذا النص على المناهج الحديثة، وكذا التقليدية.

فهل استجابت المناهج النقدية في الساحة النقدية الجزائرية لهذا النص؟

وهل استطاعت مساءلتها له الوقوف على أسراره؟

وهل استوعبت هذه المناهج فضاءات ودلالات نصّ يمثل ماضي أمة وعراقة ثقافتها وأصالة فكرها، ويرسم ملامح مستقبلها، ويرسي دعائم فلسفتها في الحياة، سأحاول الوقوف على النص التراثي الشعبي، وكيف يسائله المنهج النقدي، من خلال تتبع الآليات التي اعتمدها كل من عبدالملك مرتاض وعبدالحميد بورايو في تناولهما للنص التراثي الشعبي، كون هذا النص يتميز بخصوصية، تجعله وثيق الصلة بالمجتمع والثقافة، فهل استوعبت المناهج التي اعتمداها طبيعة هذا النص؟ وما طبيعة تناولهما لهذا النص؟ أم أن هناك تعاملا خاصا يقتضيه هذا النص لحظة مساءلته بآليات المنهج، خاصة إذا علمنا أن المنهج يحتاج إلى رصيد فكري، وهو ما يجعل المنهج مناهج، فتتعد الرؤى وتتضارب، وما زادها غموضا طبيعة النص التراثي الشعبي، الذي يأبى تسليط المنهج بحذافيره، إذ يستدعي في غالب الأحيان توظيف كمّ من منهج لسبر أغواره، فهذا النص دلالاته واسعة، وفنياته مركبة، ومعقدة البناء والسبك، بديعة النسج، ومحكمة الأركان، وهو ما يجعل أي تناول نقدي لهذا النص يفرض العودة إلى منهج يتناغم والثقافة التي أبدعته، فكيف كان تناول مرتاض وبورايو للنص التراثي الشعبي؟ وأي منطلق ينطلقان منه في سبرهما لأغواره؟ هل يخوضان فيه بمناهج سياقية؟ أم يؤثران ما جادت به الحداثة من مناهج مختلفة؟ وهل استوعبت معطيات هذه المناهج وآلياتها خصوصية هذا النص؟ وكيف تعاملا مع السيل الكبير من المناهج في مقاربة هذا النص؟

1-1-النص التراثي الشعبي العربي وسؤال المنهج عند مرتاض:

سنعرج على منهج دراسة مرتاض للنص التراثي الشعبي، بالعودة إلى أهم كتبه النقدية في هذا الباب، وهي المؤلفات الآتية:

*الألغاز الشعبية الجزائرية.

*الأمثال الشعبية الجزائرية.

*في الأمثال الزراعية.

* الميثولوجيا عند العرب.

* عناصر التراث الشعبي في اللاز.

بتتبع تناول النص التراثي الشعبي العربي في هذه المؤلفات سنجد بأن مرتاض يخوض أغوار النص التراثي الشعبي بمجذاف حداثي، وهو ما يؤكده من خلال تقمصه للوافد الغربي، واحتضانه لمعطياته التي يسمها بالعلمية، موليا ظهره للرؤية التقليدية، مؤكدا بأن النقد "لم يعد أحكاما نقدية اعتباطية، ولا ذرابة لفظية تقوم على سرد مصطلحات جاهزة، وتقليب جمل محفوظة... وإنما أصبح علما ذا أصول وقواعد، لمحاولة فهم الأديب وتقويمه بموضوعية وحياد، وذلك بإبعاد الكاتب الذي كتبه أو الشاعر الذي أبدعه، والانصباب على النصّ وحده..."(1)

مرتاض يلج سراديب النص التراثي الشعبي، بوصفه فاقدا لمبدعه، إذ أنه مجهول القائل، لذلك وجد الناقد ضالته في الرؤية الحداثية، التي تستبعد الكاتب الذي كتب النصّ، بل وتهمش الشاعر الذي أبدع بإحساسه المرهف درر أشعاره، فيذهب بعيدا في احتضانه للرؤية الحداثية، وإسقاطها على النص التراثي الشعبي، عازلا هذا النص عن محيطه وعن ثقافته وفلسفته، حيث يؤكد ذلك بقوله:" لا بيئة ولا زمان ولا مؤثرات ولا هم يحزنون، إنما هو نص مبدع نقرؤه، فهو الذي يعنينا، وهو الذي ندرسه ونحلله بالوسائل العلمية أو الوسائل الأقرب ما تكون إلى العلم."(2)

يشير الناقد الى الروح العلمية التي تكتسي بها الرؤية الحداثية، وهو ما جعله يتعصب لها رافضا الحديث عن البيئة والزمان والمؤثرات في دراسة النص التراثي الشعبي، إذ أنه كما يقول نص مبدع، وهو مدار عنايتنا، والرؤية الحداثية تضمن دراسة موضوعية موسومة بالحياد، فالرؤية التقليدية يراها تقتصر على محيط النص فهي رؤية "رثة، قصاراها العناية بصاحب النص، والتسلّط عليه بأسواط من اللوائم وطلب الطوائل".(3)

فهي رؤية تسعى إلى الحكم على صاحب النص، وإطلاق جملة من القيم البعيدة عن لب ما يعتلج في النص التراثي الشعبي.

يظهر مرتاض مولعا بالرؤى الحداثية، إلى حدّ الانسلاخ من البيئة والزمان والمؤثرات التي نشأ فيها الناقد والنص التراثي الشعبي على السواء، إلا أنه وقع في شيء من الاضطراب في تعامله التطبيقي مع هذه الرؤى الحداثية على النص التراثي الشعبي العربي، وهو ما نلاحظه حين نتصفح كتابه الموسوم بـ"الألغاز الشعبية الجزائرية"، حيث يستهلّ كتابه برؤية تبدو للوهلة الأولى حداثية، لكنها مشوبة بشيء من الريب في إمكانية عزلها عن السائد الموسوم بالتقليدي. حيث يقول الناقد بأنه يعتمد "المنهج البنيوي، أو عناصر من أصوله على الأقل..."(4)

هذه الرؤية لا تخلو من تردّد، وهو ما يعكسه اجتزاؤه لهذا المنهج عند ولوجه لسراديب الألغاز الشعبية الجزائرية، فهو يبدأ كتابه بباب تناول فيه مضمون الألغاز الشعبية، وهو ما يؤكد اضطراب الناقد في التعامل مع المنهج الحداثي الذي احتضنه، حيث إن المضمون لا يمت بصلة إلى المنهج البنيوي الحداثي. فما هي دلالة الشرح والتفسير الذين أظل الناقد الألغاز الشعبية تحت مظلتهما إلا دلالة عن حيرة الناقد بين ما اعتبره رثا، وبين الوافد الحداثي؛ إذ لم يستطع التخلص من رواسب الرؤية التقليدية، وهو ما يطرح إشكالا في التعامل مع النص التراثي الشعبي، الذي لا يمكن عزله عن بيئته وزمانه، والمؤثرات التي أحاطت بمخاض ولادته.

يعود الناقد في الباب الثاني من كتابه إلى الرؤية الحداثية، من خلال التركيز على الجانب الشكلي للألغاز الشعبية الجزائرية، فركز على لغة الألغاز وأسلوبها، لكنه لم يستطع التملص -رغم ذلك- من الرؤية التقليدية؛ حيث نجده يتناول بعض المصطلحات التراثية البلاغية جنبا إلى جنب مع المصطلحات اللسانية الغربية، بل أيضا في محاولته امتطاء صهوة منهج وصفه بالألسني البنيوي[5] لكنه يغيب تفاصيله، فلا نكاد نعثر على أثر هذا المنهج الذي امتطاه إلا في هذا الباب الثاني، المعنون باللغة والأسلوب في الأمثال الشعبية الجزائرية، وفيه عرج على مفهوم الأسلوبية واتجاهاتها، وكذا أهمّ أعلامها، وهو ما يطرح سؤال المنهج الذي تناوله الناقد في دراسته لنص الأمثال الشعبية الجزائرية، خاصة حين فصل في دراسته للأمثال الشعبية بين الشكل والمضمون، وهو إجراء تنبذه البنيوية، التي صنف منهجه استنادا إليها بأنه ألسني بنيوي، فتناول في هذا الباب الأخير المستوى البنيوي والمستوى الصوتي. مستعينا في ذلك بالإحصاء، لكنه يشير إلى تهميش جانب مهمّ وهو المستوى الدلالي، ليؤكد بأن سبب تهميش هذا المستوى يعود إلى كونه تناول المضمون في باب مستقل، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، حين يقول بأن" الحديث عن المضمون في أكثر من موطن في هذه الدراسة لا بد أن يكون قد أشار ولو من بعيد إلى هذا الضرب من المفهوم الألسني..." [6] وهو ما لا يشفع له، إذ أن هذا الإجراء يخالف الرؤية البنيوية التي بنى عليها منهجه في تناول هذه الدراسة.

1-2- طبيعة النص التراثي الأدبي الشعبي العربي تفرض على مرتاض طبيعة دراسته:

لم يستطع مرتاض التملص من رواسب الرؤية التقليدية التي ثار عليها، وهو ما يؤكد بأن النص الشعبي نصٌّ جاء ليعبر عن عواطف معينة، وآمال أمة معينة ونظرتها في الحياة. لذلك لم ينأى الناقد بنفسه عن مفهوم التراث الشعبي، الذي يمثل هوية أمة معينة، وإن حاول أن

يتجاهل ذلك أمام ما هبت به رياح الحداثة من مناهج، إلا أنه لم يستطع التغريد خارج هذا المفهوم للنص التراثي الشعي، الذي لا يمكن إغفال مضمونه ولا بيئته ولا زمانه، كما تطالب به الرؤية الحداثية التي احتضنها وانتصر لها على حساب طبيعة النص الذي فرض عليه في الأخير العودة إلى ملابسات البيئة والزمان، بل إنه وإن تجرأ على تجاوزها إلا أنه وقع في كثير منها، إذ طبيعة الدراسة تفرضها. بل وقع أيضا في شراك الرؤية التقليدية التي ثار عليها، حيث نجده في كثير من الأحيان يصدر أحكاما نقدية على اللغة وعلى الأديب، وهو ما يجعله في اضطراب حيال الوافد الحداثي، خاصة وأنه في كثير من الأحيان يصف المناهج التقليدية بأن "قصارها تناول النص من حيث مضمونه، وهل هو نبيل أو غير نبيل؟ وتناولِ اللغة من حيث شكلها، وهل هي سليمة أو غير سليمة؟ قبل أن تصدر أحكاما قضائية صارمة على صاحب النص أو له..." (7).

وهو اضطراب كبير يؤكده قوله في دراسته لعناصر التراث الشعي في اللاز بأن لغة الروائي" في معظم أطوارها إما ضعيفة...وإما عادية، بمفهوم النثر الشبيه بالعلمي، الذي لا يراعي أبسط عناصر الأناقة والجمال الفني في الصياغة"(8) أليس هذا تناقضا صارخا في تبنيه للرؤية البنيوية، فيما يصدر أحكاما صارمة كهذه، لا تخرج الدراسات التي تناولت النص التراثي الشعي الجزائري عند عبد الملك مرتاض عن الخطة التي رسمها في كتابه (الألغاز الشعبية الجزائرية)؛ إذ تشترك دراساته (عناصر التراث الشعي في اللاز - في الأمثال الزراعية - الميثولوجيا عند العرب) في أن مرتاض يفرد بابا يسكب فيه حديثا مقتضبا عن اللغة الفنية التي تميز "المفردات الفنية أو المعجم الفني المؤلف منه العمل الأدبي بكل أبعاده وعناصره الألسنية واسعة التشعب..."(9) وهو اعتراف من الناقد بصعوبة خوض غمار النص التراثي الشعي بمناهج لا تراعي خصوصيته، فكانت عنايته بالمضمون من وجهة تقليدية أكثر من عنايته بالشكل، الذي يعتبر جوهر الرؤى الحداثية، خاصة البنيوية التي اتكأ عليها النّاقد.

الناقد يحاول اختراق سراديب النص التراثي الشعبي، إلا أن هذا النص يتمنع من الرؤية الحداثية التي انبهر بها الناقد، وهو ما فرض عليه في مراحل أخرى إعادة النظر في المنهج الذي يتناول به النص التراثي الشعبي، فإذا عدنا إلى كتابه السابق (الألغاز الشعبية الجزائرية) نجد أن النص التراثي الشعبي الجزائري فرض على الناقد الإبقاء على الرؤية التقليدية في تمجيد المضمون من ناحية، واحتضان الرؤى الحداثية بحذر، وهو ما يفسر تلك الشذرات البنيوية، التي تتعالق مع شذرات أسلوبية، إضافة إلى شذرات بلاغية تراثية قديمة.

وهو ما يؤكد بأن النص التراثي الشعبي لا المناهج التقليدية ولا الحداثية استطاعت استيعابه، مما جعل مرتاض يخرج بقناعات عن النص التراثي الشعبي، فذهب إلى البحث عن رؤية تنطلق من خصوصية النص التراثي الشعبي، وليس من خلال جلده بسوط الحداثة اللاهبة، محاولا الجمع بين التراث والحداثة، فيؤكد بأن معظم المناهج التي تعج بها الساحة النقدية "موروث بعضها عن بعض، وقائم بعضها على بعض، فلا البنيوية ولا النفسانية ولا السيميائية ولا الأسلوبية نفسها تستطيع إحداهن أن تزعم أنها ناشئة من عدم، وإن كل أدواتها التقنية ومصطلحاتها المفهوماتية جديدة، فاللسانيات قامت على جهود النحاة وفقهاء اللغة، وحتى المعجميين.

كما أن الأسلوبية على الرغم من أنها فرع من اللسانيات تصنيفا إلا أنها قامت على أنقاض البلاغة، بفروعها الثلاثة: البيان، والمعاني، والبديع. ولم تقم البنيوية إلا على جهود الشكلانيين الروس، وجهود دي سوسير، على حين أن السيميائية خليط من اللسانيات والنحويات وربما البلاغيات؛ لأن التشاكل (isotopie) بأنواعه التي اهتدى إليها غريماس لا يعدو أن يكون تجسيدا لمساع ذهنية، كانت تتردد على ألسنة البلاغيين، وكل ما في الأمر أن المساعي المعاصرة تتسم بتقنيات أدق، ومنهجية أكثر صرامة."(10)

إن ما صادفه الناقد في تناوله للنص التراثي الشعبي جعله يعيد النظر في كثير من معطيات الحداثة في التعامل مع النص التراثي الشعبي، الذي تتعالق فيه الرؤى الحداثية بالرؤى التراثية. بل ذهب إلى حدٍّ اعتبر فيه الرؤى الحداثية نهضت على أنقاض الرؤى التراثية، ولا تمتاز عنها إلا بدقة تقنياتها، وصرامة منهجها، وعلى الرغم من ذلك يحاول الناقد تحويل بوصلة النقد الأدبي من التركيز على المؤلف إلى التركيز على النص، لذلك صرح بأن النص أصبح "...كالنطفة التي تقذف في الرحم فينشأ عنها وجود بيولوجي، ولكن الوليد على شرعيته البيولوجية والوراثية لا يحمل كل خصائص أبيه..."[(11)] وهي قناعة جعلته يتأكد من أنّ النص التراثي الشعبي يستحيل وضع قواعد ثابتة تضبط دراسته، بل إنه يفرض على دارسه منهجا مستقلا بذاته وبطبيعته، بل إن تناولنا للنص التراثي الشعبي من رؤية واحدة لا يمكننا استنفاد كل خفاياه وأسراره، بل إنه يتحدد وينبعث من خلال كلّ قراءة، كما أنه يمكن أن يدرس من طرف دارسين من مدرسة نقدية واحدة، لكن النتائج المتوصل إليها تختلف. هذه قناعات فرضها النص التراثي الشعبي على الناقد، وهو ما جعله يعيد النظر في ذلك الافتتان المفرط بما جاءت به الحداثة، ليؤكد بأن:"هذه الأدوات الجديدة، التي تطالعنا بها كل يوم العلوم الإنسانية، ليست غاية فذلك تدبير مفلس، وإنما هي مجرد وسيلة مطورة لرؤيتنا إلى النص، ومكملة للنقائص التي كانت تعتور مساعينا في التحليل للاقتراب بأعمالنا إلى نحو الكمال."[(12)] داعيا إلى عدم نبذ التراث، وعدم الإغراق في الانبهار بالوافد الغربي الحداثي، بل محاولة سدّ الثغرات التي تركتها الرؤى التراثية والتقليدية بهذه الرؤى الحداثية.

1-3- التركيب المنهجي عند مرتاض آلية من آليات سبر أغوار النص التراثي الشعبي:

إن ما فرضته طبيعة النص التراثي الشعبي على الناقد عبد الملك مرتاض جعله يدعو إلى رؤية ربما بالغ فيها، وهي رؤية تؤكد بأن طبيعة

النص هي التي تحدد المنهج الملائم لخوض غماره، فكانت دعوة الناقد إلى عدم تبني منهج واحد في الإبحار في أغوار النص، إذ أن النص التراثي الشعبي قد يستدعي أكثر من منهج، نظرا لطبيعته المتفلتة غير الثابتة، فقال قولته المشهورة :" إن اللامنهج في تشريح النص الأدبي هو المنهج.."(13) وهي قناعة ظلت ملازمة له في دراساته التي توالت بعد هذه التي اختصت بالنص التراثي الشعبي الجزائري.

يؤكد الناقد هذه الرؤية مستندا إلى التراث، فمثلا في القراءة السيميائية يؤكد بأنه"من المكابرة الزعم بأنّ المعاصرين اليوم وحدهم هم الذين اهتدوا إلى إشكالية القراءة السيميائية بكل إنجازاتها اللسانية، وعلى تعدد حقول تأويلاتها المستكشفة"(14)، فتصوره المنهجي المتشابك يستمد مشروعيته من أننا -كما يقول-:" نصادف قراءات أدبية تكاد تندرج اندراجا تاما في حقل السيميائية، ولنضرب لذلك مثلا، لمن كان مفتقرا إلى أمثال تضرب له بأعمال تراثية، كشرح المرزوقي لنصوص حماسة أبي تمام، وكشرح أبيات المتنبي لابن سيده، وبدرجة أدنى مقامات الحريري"(15)، وهي رؤية تؤكد بأن الناقد شكل قناعة، مفادها أن النص التراثي الشعبي والنص الأدبي بعامة لن نفك سراديبه إلا بالتركيب المنهجي المفتوح، بعيدا عن القراءة المغلقة ذات المنهج الواحد.

إن الدعوة إلى التركيب المنهجي...التوحيدي(16) منزع آخر(17)، يدعو مرتاض من خلاله إلى منهج تركيبي شمولي، وهو ما جعله يؤكد - أمام استعصاء النصّ التراثي الشعبي وتمنّعه:" أنه أولى لنا أن ننشد منهجا شموليا، ولا أقول منهجا تكامليا، إذ لم نر أتفه من هذه الرؤية المغالطة، التي تزعم أنّ الناقد يمكن أن يتناول النص الأدبي بمذاهب نقدية مختلفة في آن واحد، فهذا المنهج مستحيل التطبيق علميا..."(18)، وهي رؤية تبلورت للناقد مع تلك التجربة التي خاضها مع النص التراثي الشعبي، وهو تأكيد منه على أنّ التركيب ممكن بين المناهج المتقاربة في الرؤية المعرفية، لا المتباعدة في الرؤية المعرفية.

1-4-النص التراثي الأدبي الشعبي يفرض منهج دراسته على مرتاض:

وجد مرتاض نفسه أمام نص شعبي فجعله ذلك يؤسس لرؤية تكون أرضية لولوج أي نص حيث يقول:" كل نص يفرض على دارسه منهجه المستقل..."(19)، فهو يركن إلى النص، ويسائل المنهج، وهو ما جعله يخلص إلى رؤية تتكئ على الإجراء المستوياتي، حيث يقول:" الإجراء المستوياتي الذي عالجنا به نحن جملة من النصوص الأدبية وقرأناها من خلاله، والذي نعترف أننا ركبناه من البنيوية واللسانيات والسيميائيات، ولكن بإضافات كثيرة إلى السيميائية الأدبية... أن يكون أدنى إلى القدرة على شيء من تناول النص الأدبي بقراءة تنهض على التحليل التأويلي والتأويل التحليلي"(20).

يعدل مرتاض من رؤيته فيذهب إلى " استنطاق المنهج، على عكس من يضع المنهج سيفا على رقبة النص، بل يذهب إلى بلورة رؤية تيسر الولوج السلس إلى أغوار النص، وهي بنود ذهبية استوحاها من خصوصية النص الأدبي، وما فرضه التعامل مع النص التراثي الشعبي، ليؤكد بأن النص إذا كان روائيا واقعيا يستعين في تحليله بمنهج بنيوي تكويني، مع اتباع التفكيك كإجراء. أما إذا كان روائيا جديدا يفضل ولوجه بالمنهج البنيوي، مع الاستفادة من السيميائية كأداة لفهمه، والتفكيك كإجراء منهجي، أما إذا كان شعريا يمكن اصطناع البنيوية اللسانية مع الاتكاء على التفكيك"(21)

النص التراثي الشعبي عند مرتاض هو منْ يسائل المنهج، ليؤكد قصوره عن الإحاطة بمختلف محطاته، وضرورة اشتراك أكثر من منهج للوقوف على تجليات النص التراثي الشعبي، وهو ما يبرر لنا التداخل الحاصل بين المناهج النقدية المختلفة في دراسات الناقد الخاصة بالنص التراثي الشعبي، إذ لا يمكن أن نستوفي عطائية النص التراثي الشعبي بمنهج واحد، والعطائية كما يعرفها عبد الملك مرتاض هي: "...ما يمكن أن يعطيه إيانا نص أدبي ما من خلال البحث في مكامنه...فكأن النص

يتجدد وينبعث من خلال كل قراءة يقوم بها قارئ، وهكذا نجد عطاء النص الأدبي متجددا أزليا لا ينفذ أبدا"[22].

1-4- اللامنهج ضمان سبر أغوار النص التراثي الشعبي عند مرتاض:

خلص الناقد إلى أن التعامل مع النص التراثي الشعبي ليس بالتقوقع على الرؤى العتيقة، ولا في الانبهار بالرؤى الحداثية، حيث يقول:" فلتكن هذه محاولة منهجية لدراسة التراث العربي السردي، ولتكن مدرجة لإثارة السؤال ومسلكه لاستضرام الجدال، ولتكن أيضا دعوة تجديد، ولكن بعيدا عن التقليد الذي تبناه، ابتلتنا به هذه النظريات التي نقرؤها في لغتها الأصلية طورا، ونقرؤها مترجمة طورا آخر، فإذا عدواها تسري فينا كالسموم، وإنه ليعز علينا أن نهيم بهذه النظريات في كل واد، ونتنافس في تطبيقها على النص الأدبي العربي بطرق ميكانيكية، لا تعني كبير شيء.

كما يعز علينا أن نرى بعض الجامدين يعتقدون أنهم بالرجوع إلى المناهج التراثية العتيقة قادرون على مواجهه ذوق العصر ومعايشة أهله، ويحيل إلى نتيجة لذلك أننا صنفان اثنان؛ صنف محدث مقلد تقليدا أعمى، وصنف اتباعي مقلد للأجداد تقليدا أعمى، وواضح أن الشرّ كل الشر في الحالين"[23]، وهو تأكيد منه على اللامنهج، تاركا المجال مفتوحا أمام النص لاختيار المنهج الذي يتناغم مع طبيعته وخصوصيته، بل فاسحا المجال أمام النص ليستعير من كل منهج ما يتلاءم مع ما يفيض به من دلالات، مشكلا منهجيا شموليا تركيبا يغوص في أعماقه ليكتشف لآلئه.

2- النص التراثي الشعبي العربي وسؤال المنهج عند بورايو:

2-1- ربط النص التراثي الشعبي بسياقه آلية من آليات سبر أغواره عند بورايو:

نحاول رصد تعامل الناقد عبد الحميد بورايو مع النص التراثي الشعبي العربي، من خلال الوقوف على أهم كتبه التي تناولت النص التراثي الشعبي بالنقد والتحليل، خاصة كتابه "القصص الشعبي في منطقة بسكرة ".

نجد في هذا الكتاب أنّ النص التراثي الشعبي العربي يفرض على الناقد تعاملا خاصّا، تعاملا يختلف عن تعامل سابقه -مرتاض- مع النص التراثي الشعبي، إذ حاول بورايو استعادة السياقات التي حاول مرتاض تهميشها في كثير من دراساته لهذا النص التراثي الشعبي، إلا أن النص التراثي تمنّع من ذلك، لذلك يخط بورايو تجربته مع هذا النص، منطلقا فيها من منهج وسمه في كتابه القصص الشعبي في منطقة بسكرة بأنه تناول النص الذاتي الشعبي برؤية حداثية متشابكة مع الرؤية التقليدية، حيث يقول:" قام الدارس بتحليل نماذج من النصوص، فكشف عن البنية التركيبية لنموذج من كلّ نمط قصصي، وبيّن علاقة هذه البنية الأم التي تولدت عنها، وهي البنية الاجتماعية، مستعينا في ذلك بالمنهج البنيوي".(24)

يحاول بورايو ربط النص التراثي بالسياق الذي قيل فيه خاصة أن طبيعة هذا النص تجعل من إيحاءاته السياقية مدخلا للوقوف على الملابسات الاجتماعية والتاريخية التي أحاطت بهذا النص أو عبر عنها، لذلك يؤكد بأنّ رؤيته المنهجية في تناول النص التراثي الشعبي تستند إلى طبيعة هذا النص، حيث يقول بأنه يستند إلى:" المفهوم الذي يرى في النشاط الفني تحققا لإمكانيات كامنة، تعبر عن نفسها من خلال مختلف أشكال التعبير، وبالتالي يرى في النص الأدبي مظهرا لبنية كامنة"(25).

2-2- دراسة النص التراثي الشعبي عند بورايو تقويم لقصور المناهج الحداثية:

يحاول بورايو استعادة ما تم إغفاله في الرؤى الحداثية، حيث يقول: إن "ما عرف في النقد التقليدي بالجوانب النفسية والاجتماعية للظاهرة الأدبية، وحاولت الدراسات البنيوية والشكلانية والتحليلات النصية للنقد الجديد أن تقصيها أو تدفع بها إلى مواقع متأخرة عادت من جديد، لتدخل في نطاق مفهوم الخطاب الأدبي، لكن من خلال فعاليتها وأدوارها المتحركة، وفي مستوياتها المختلفة، لا من خلال ثبات المفاهيم المتعلقة بها."(26)

فالناقد يفضل مصطلح الخطاب على النص، إذ أن مصطلح الخطاب في رأيه" يسمح بإمكانية دراسة التراث الشعبي الشفوي، عكس مفهوم النص، فهو يخفف من وطأة الأدوات المنهجية المنبثقة عن سلطة الكتابة، بحيث ينظر إلى الكتابة كوسيلة من وسائل أخرى يمكن أن يبث عن طريقها المعنى".(27)

وهو ما جعل الناقد يركز في دراسته للنص التراثي الشعبي على الرؤية التي يحملها هذا النص، وهي رؤية العالم. إذْ -بحسب ما ذهب إليه- إن كلّ نص تراثي شعبي يحمل رؤية للعالم، حيث يقول: "نعني بشرح النص إدماج البنية الدالة في بنية أكبر منها." (28) وهذا في حديثه عن مستويات الدراسة التي اعتمدها لدراسة النص التراثي، خاصة في الفهم والتفسير، وهو الشرح. كما وقف عليه كلّ ذلك بغية الكشف عن رؤية الجماعة الشعبية التي صدر عنها النص للعالم الذي تعيش فيه..."(29).

3-2- تكييف المناهج مع طبيعة النص التراثي الشعبي سبر لمكامنه:

كما أنّ الناقد يبتعد عن التطبيق الميكانيكي للرؤية الحداثية، إلا إذا تماشت مع طبيعة النص التراثي الشعبي، حيث يؤكد بأنّ تناوله للنص الشعبي يسعى" إلى تجسيد ثراء طرق تحليل الخطاب الادبي الشعبي، عن

طريق تقديم معالجات متنوعة، الغرض منها توضيح المفاهيم وتأصيلها، وتهيئة الظروف التي تسمح بتراكم العمل التطبيقي والمنهجي، من أجل تحقيق مشروع معرفي يسهم في تحقيق حداثة الدراسات الشعبية العربية، باعتبارها حلقة هامة من حلقات الثقافة العربية".(30)

فهو يحاول سبر أغوار سراديب النص التراثي الشعبي، ولكن من خلال مواءمة ما جاءت به الحداثة مع طبيعة النص التراثي، ليسهم في نهضة مشروع يحمل على عاتقه التجديد في دراسة هذا النص، لكن مع تأصيل كلّ جديد.

فيذهب بورايو إلى " استبعاد المفاهيم المنقولة بشكل حرفي عن الدراسات الغربية، إذ يؤكد بأنه عمل على تجاوز التطبيقات الميكانيكية التي لا تعتمد على أدنى جهد تأصيلي وتمثيلي لهذه المفاهيم، درءا -كما قال- للمزالق التي تقع فيها عادة التناولات النقدية الضحلة، المستكينة لراحة السهولة والكسل، المعتمدة على اجترار المفاهيم السطحية المستهلكة".(31)

4-2-منهج دراسة النص التراثي الشعبي بين مرتاض وبورايو:

يشترك بورايو في تبنيه للمنهج الحداثي في ولوج فضاء النص التراثي الشعبي الفسيح مع ما ذهب إليه عبد الملك مرتاض، إلا أنه يتمثل معالم المنهج الحداثي، وهو ما لم نلمسه في تناول مرتاض لهذا النص وفق الرؤية الحداثية، إذ أن بورايو يعتمد المنهج البنيوي التكويني، وهو منهج يلامس في كثير من تجلياته طبيعة النص التراثي الشعبي وخصوصيته، وهي دلالة على تمكن الناقد من الأصول المعرفية لهذا المنهج، وتمثله الكبير لإجراءاته، فهو في كثير من الأحيان يتبع مراحل محددة في تناوله للنص التراثي الشعبي، بحيث إنه يبدأ بردّ القصة إلى وحداتها الأساسية، واستقراء طبيعة علاقتها على مختلف المستويات المورفولوجية والتركيبة والدلالية بالاعتماد على مبدأي التوافق والتحالف بين العناصر، فينتج عن ذلك استنباط النماذج التي تخضع لها البنية القصصية في مختلف

مستوياتها، ثم ينتقل إلى رصد علاقات وحدات القصة، مرتكزا في ذلك على المستوى التركيبي والمستوى الاستبدالي، ثم يستعين بالرسوم التوضيحية لتسجيل النماذج البنائية للوحدات القصصية، ثم يقوم بإرجاع النص إلى أقسامه السياقية الأساسية كالاستهلال، البداية، المتن، النهاية، الخاتمة، ليعرج بعد ذلك على تلخيص أحداث القصة لكي يحصر وحداتها الوظيفية، ليدخل القصة في بنيتها الكبرى.(32)

هذه المراحل تؤكد الاختيار السديد للمنهج الحداثي الذي يلائم طبيعة النص التراثي الشعبي، حيث قام بورايو بتحليل نماذج من النصوص فكشف عن البنية التركيبية لنموذج من كل نمط قصصي، وبين علاقة هذه البنية بالبنية الأم التي تولدت عنها، وهي البنية الاجتماعية، مستعينا في ذلك بالمنهج البنيوي(33)، وهو ما جعلنا نلمس في دراسته للقصص تناوله لمصطلح الوظائف، والاختيار "l’épreuve " والأدوار العاملية.

2- 5-سياق النص التراثي الشعبي بين بورايو ومرتاض:

بورايو لم يجنح في دراسته للنص التراثي الشعبي إلى إلغاء السياق كما ذهب إلى ذلك مرتاض، حيث نجد الأول يشير إلى أن مفهوم الخطاب الأدبي " يهدف إلى تجاوز الإشكالية التي طرحها مفهوم النص، من خلال التحليلات التي حبست نفسها في نطاق العلاقات البنيوية الداخلية للأثر الأدبي"(34)، فهو يؤكد على وجوب الأخذ بعين الاعتبار الملابسات المحيطة بالنص، لذلك لا نجده صارما في تطبيق المنهج الحداثي على النص التراثي الشعبي، بل نجده أكثر مرونة إذا تعلق الأمر بهذا النص، نظرا لطبيعته التي تفرض تعاملا خاصا، فهو يميل إلى مساءلة المنهج قبل أن يسائل النص بالكم الهائل من الإجراءات الحداثية.

إن بورابو يعمد إلى سبر أغوار النص التراثي الشعبي معتمدا على المزاوجة بين المعطيات السابقة والمعطيات النصانية، فهو يبدأ برؤية بنيوية شكلانية للمكونات السردية القصصية، ثم يعمد إلى استجلاء دلالاتها

الاجتماعية والنفسية، مستندا في ذلك إلى معطيات التحليل النقدي النفسي والتحليل النقدي الاجتماعي.

إن بورابو يؤكد بأن النص التراثي الشعبي نص ذو خصوصية، تجعله لا يستسلم للمنهج الحداثي، بل لا يستسلم لأي منهج لا يستوفي جميع جوانبه، فالناقد على الرغم من أنه يعتمد المفاهيم النقدية انطلاقا من أعمال فلادمير بروب وغريماس، كالمتواليات، الوظائف، الوساطة، تصنيف الوظائف، نظام الشخوص، إلا أنه لا يغفل السياقات " الاجتماعية، النفسية، والإدراكية " كلّ ذلك بغية كشف العلاقة الوطيدة بين النص التراثي الشعبي و" الثقافة السائدة بين أفراد المجتمع والمستهلك لهذا الخطاب"[35].

2-6- التركيب المنهجي آلية تجمع بورايو بمرتاض في سبر خصوصية النص التراثي الشعبي:

إن بورابو يعمد -كما مرتاض- إلى التركيب بين المناهج، فنجده تارة يحلل النص التراثي الشعبي بمنهج بنيوي تكويني، ثم نجده في دراسات أخرى يتناول هذا النص بمنهج سيميائي لكن دون الاستسلام لصرامة المنهج، كأنه يدعوا إلى التكامل بين المناهج عند تناول النص التراثي الشعبي، وهو ما استوحاه من طبيعة النص التراثي، إذ يستدعي هذا النص إجراءات بنيوية تكوينية تارة، ثم يستدعي إجراءات سيميائية تارة أخرى، وفي خضم هذا وذاك تحضر الجوانب السياقية الاجتماعية والنفسية، فطبيعة النص التراثي الشعبي فرضت على الناقدين مراعاة خصوصية هذا النص، بل فرضت عليهما مساءلة المنهج قبل مساءلة النص التراثي الشعبي، أي الاحتكام إلى النص قبل الاحتكام إلى المنهج.

الهوامش والمراجع المعتمــــــدة

---

(1) عبد الملك مرتاض، الألغاز الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 07.

(2) المرجع نفسه، ص 08.

(3) عبد الملك مرتاض، عناصر التراث الشعبي في اللاز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987، ص 06.

(4) عبد الملك مرتاض، الألغاز الشعبية الجزائرية، مرجع سابق، ص12.

(5) المرجع نفسه، ص 08.

(6) المرجع نفسه، ص 120.

(7) عبد الملك مرتاض (أ/ي) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص19.

(8) عبد الملك مرتاض، عناصر التراث الشعبي في اللاز، مرجع سابق، ص 8.

(9) المرجع نفسه، ص 52.

(10) عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، علامات، ج5، م2، ربيع الأول 1413، سبتمبر، 1992، ص 145.

(11) عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

(12) عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، علامات ج5، م2، مرجع سابق ص 15.

(13) عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟، مرجع سابق، ص 55.

(14) عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، علامات ج5، م2، مرجع سابق، ص 147.

(15) المرجع نفسه، ص 147.

(16) عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، علامات ج5، م2، مرجع سابق، ص 145.

(17) المرجع نفسه، ص 145-146.

(18) عبد الملك مرتاض، ألف ليلة وليلة تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 10.

(19) عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟، مرجع سابق، ص 51.

(20) عبد الملك مرتاض، القراءة بين القيود النظرية وحرية التلقي، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، العدد04، 1996، ص 23-24.

(21) عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، النص من حيث هو حقل للقراءة، مجلة علامات، مرجع سابق، ص 149-152.

(22) عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟، مرجع سابق، ص 51.

(23) عبد الملك مرتاض، ألف ليلة وليلة تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد، مرجع سابق، ص 11.

(24) عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 06.

(25) المرجع نفسه، ص 137.

(26)عبد الحميد بورايو، تحليل خطاب الحكاية الشعبية مقاربة منهجية، مجلة السيميائية والنص الأدبي ...أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة باجي مختار،17/12ماي 1995، ص 82-83.

(27) المرجع نفسه، ص 83.

(28) عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، مرجع سابق، ص 197.

(29) المرجع نفسه، ص 197.

(30) المرجع نفسه، ص 197.

(31) عبد الحميد بورايو، تحليل خطاب الحكاية الشعبية مقاربة منهجية، مجلة السيميائية والنص الأدبي ...أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة باجي مختار،17/12ماي، 1995، مرجع سابق ص 83.

(32) عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، مرجع سابق، ص 137-139.

(33) المرجع نفسه، ص 06.

(34) عبد الحميد بورايو، البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشفوي الجزائري، ديوان المطبوعات الجزائرية، 1998، ص 87-88.

(35) المرجع نفسه، ص 94.